

# الليالى لألفريد دى موسى

بمستلم  
الدكتور على درويش

مدرس الأدب الفرنسى بجامعة عين شمس

(١)

من السهل أن تُملأ كتبٌ كاملة بترجمات حياة ألفريد دى موسى ، دون أن يضطر فيها السارد إلى الحديث عن إنتاجه ؛ فما أكثر الجوانب الطريفة في حياة دى موسى «الرجل» ، وما أكثر الأحكام المتناقضة التي أصدرها معاصروه عن شخصيته ، والتي تحوى جميعاً قدرأ ما من الحقيقة ! بل ومن السهل أن يتناول هذا الكتاب أو ذاك مظهراً واحداً من تلك المظاهر البارزة التي زخرت بها حياة موسى ، فينصب مثلاً على علاقاته النسائية ، أو على سلوكه العايب في المقاهى والحانات ، أو على إفراطه في التأنق dandysme وهو البسدة التي انتشرت في إنجلترا في بداية القرن التاسع عشر ، ووصلت عدواها إلى فرنسا ، والتي لم تقتصر على مظهر من بهرتهم من الشبان ، وإنما تغلغل تأثيرها في خلقهم وسلوكهم .... ولكن ليس من السهل أن يكتب بحث عن إنتاج دى موسى دون أن يعتمد على أبسط التفاصيل في حياته ، ذلك لأن هذه الحياة هي التي تعكس ذلك الإنتاج بشطريه الشعري والمسرحي ... لقد فطن القارئ الآن من غير شك إلى أننا لن

نخصص في هذا البحث جزءاً لترجمة خالصة لحياة ألفريد دى موسى ، وإنما سنمزج تحليل حياته بتحليل إنتاجه ... لأن بحثنا لن يكون عن «موسيه الرجل» وإنما عن «موسيه الشاعر» ، شاعر الحب ، وشاعر الألم ، الذي أقبل على فرنسا كالربيع ، «كربيع من الشعر» على حد قول سانت بيثف (Sainte-Beuve).

ولد ألفريد دى موسى في ١١ ديسمبر سنة ١٨١٠ في أسرة أولعت بالأدب .. ولم يكد يبلغ السابعة من عمره حتى وقع بصره على ترجمة فرنسية لكتاب «ألف ليلة وليلة» ، فانكب على قراءته . لقد طبع هذا الكتاب خياله بطابع لم يحم مدى حياته .... وعنى والده بتعليمه ، ولكنه لم يكد يتم تعليمه الثانوى حتى بدأ يسبب لأهله متاعب كثيرة : كان - في رأى بعض النقاد - كسولاً ومترددأ لا يعرف أى شعبة من شعب الدراسة يختار ليُعد نفسه للمستقبل . أراد أهله إدخاله مدرسة الهندسة فرفض ، مفضلاً دراسة الحقوق ، هل درس الحقوق إذن دراسة جدية ؟ لا ، فقد كان يؤثر عليها التجوال في حدائق التويليرى Tuileries وفي الطرقات العامة ! وقبل إتمامها عدل عنها والتحق بمدرسة الطب ؛ إلا أنه

شعر في أول جلسة من جلسات التشريح بتقزز وهلع ، فلاذ بالفرار ، وزهد يومها في الطعام ، ورأى في المنام جثثاً أثارت في نفسه ما أثارت جلسة التشريح ... فهجر مدرسة الطب . وفكر في الموسيقى ، وبدأ يتوفر على دراستها ، ولكنه وجد بعد حين أن مجالها مجذب ، فحاد عنها هي الأخرى ... ماذا يفعل إذن ؟ .. إنه يتذوق الرسم ، لا بأس إذن في أن يكرس جهوده لصقل موهبته : لقد أخذ يقلد كبار الفنانين تقليداً فيه ما يشبه الابداع ؛ وبالرغم من أن لوحاته أثارت انتباه ديلاكروا Delacroix وإعجابه ، فقد كان أبعد من أن يكون راضياً عن اتجاهه الجديد ... قال لأهله إنه لن يوافق أبداً على أن يصبح « رجلاً من طراز خاص » ! ... لقد ولد شاعراً ، ومال منذ البداية إلى الحياة الصاخبة ، حياة المسارح والمقاهي والأندية .

وفي عام ١٨٢٨ ( كان عمره ثمانية عشر عاماً ) قدمه زميل قديم له في المدرسة ( بول فوشيه Victor Hugo P. Foucher ) إلى فيكتور هوجو ( زوج شقيقة فوشيه ) الذي كان يتزعم الحركة الرومانسية ، وينسق جهود المؤيدين لها من أجل معركة النصر ( ١٨٣٠ ) في « صالونه الأدبي » الذي أطلق عليه Le Cénacle . هنا أتيح لموسيه أن يلتقي بصفوة الكتاب من الشبان : سانت بيث ( Sainte-Beuve ) وميرمييه ( Mérimée ) والأخين ديشان ( Deschamps ) كما عرف فيني ( Vigny ) ونوديه ( Charles Nodier ) . ولم ينقض وقت طويل حتى رُحب به كذلك في السهرات الأدبية التي كان نوديه ينظمها أيام الأحد في مسكنه الذي اتخذ طابع « صالون أدبي » أطلق عليه L'Arsenal ، وكان يضم أعرق من ينتمون إلى صفوة الكتاب والمفكرين .. وهكذا يمكن القول إن بول فوشيه أتاح لموسيه الفرصة لإتارة طريق مستقبله . سوف نرى إلى أي حد سيتأثر بالرومانسين وسينضوى

تحت لوائهم ! .. الأمر الذي ينبغي أن يُلاحظ في هذا الطور من أطوار حياته ، هو أنه كان يظهر بين أنداده في « صالون » هوجو خجولاً ، صامتاً ، تعلق وجهه سمة من البرود ؛ ولقد سجل لامرتين عليه هذا « الصمت المتواضع المتصل وسط الصخب الغامض الذي تتميز به هذه الجماعة من النساء الثرثرات والشعراء » .

وينبغي أن يُلاحظ كذلك أنه لم يكن يتعاطف وجدانياً مع فيكتور هوجو : صحيح أنه كان معجباً بنموه الذي لا مثيل له ، وأنه كان ينهج نهجه في اختيار القوافي والأوزان ... إلا أنه كان يأبى - في أعماقه - أن يضع نفسه في مرتبة أدنى من مرتبة أستاذه ؛ من هنا كان يمتت تسلط هوجو العقيدى على من حوله من الكتاب الناشئين ... ومن هنا حرص التلميذ على أن يثبت جدارته ، ولم يلبث أن أظهر ( في مجال الشعر ) مهارة شبيهة بمهارة مقنن المدرسة الرومانسية .

ويبدو أن رواد الـ Cénacle خدعوا في زميلهم الجديد : لم يكن في الواقع أصدقائه الحقيقيون من الكتاب والفنانين الذين كان يقابلهم عند « نوديه » أو « هوجو » ، وإنما من الشبان العابثين الذين تلهيهم الملذات أكثر من مشاكل الفن ، وتشغلهم مظاهر الأناقة أكثر من الكتب ، ويستأثرون في المقاهي بأوقاتهم أكثر من استئثار « غروب الشمس » أو أبراج « كنيسة نوتردام » بنفوسهم ! ... ثم أن موسيه كان موزعاً بين تأثير غرائزه وتأثير بيئته العقلية ؛ وبيئته العقلية - التي وجهته فيها أسرته - كانت القرنين السابع عشر والثامن عشر ... سوف نلاحظ حبه لموليير ( Molière ) ولافونتين ( La Fontaine ) .. وسوف ندرك إعجابه بالبلغ بثولير ، ذلك الإعجاب الذي أخطأ رفاقه الرومانسيون إذ لم يأخذوه مأخذ الجد ... أخطأوا حين اعتبروا موسيه رومانسياً مثلهم ؛ يقول في رسالة كتبها إلى عمه .

« ... انى أبعد من أن تكون لى طريقة محددة ، ومن المحتمل أن أغير اتجاهى عدة مرات ... لقد أزعجى إلى أصدقائى ( يقصد الرومانسيين ) مدحاً وضعته فى جيبى لخلفى » .

كان موسيه ابيقوريا بأوسع معانى الكلمة .... حياته مكرسة للنساء والحجون بشتى أنواعه ... الحديث عن مزايا أنواع جيدة من النبيذ أو عن وجوه فتيات جميلات أجدى بالنسبة إليه من الخوض فى مشاكل الفن ! إنه ينشد السعادة : « السعادة ! السعادة ! والموت بعدها ، والموت معها ! » . ولكن هل حقق فعلاً هذه السعادة ؟ لا ، ولحسن حظ الأدب ! لقد كان فريسة لصراع عنيف بين ابيقورتيه ونوع من المثالية . كان نشاطه العايب يلهيه إلى حين ، ثم يثير فى نفسه التقرز وخيبة الأمل ... سوف نرى أن أهم مصدر لإلهامه سيحىء من تأرجحه بين المثالية والايبيقورية ، وأن الشعور بالنسبة إليه انعكاس دائم للانفعالات العميقة التى يشعر بها الإنسان الحساس حين لا يحرم نفسه من متع الحياة . كان موسيه حساساً إلى حد المرض : سريع التأثر سريع الغضب ، سريع القلب ... وأحياناً كان يغرق فى موجة من الهواجس ... وأحياناً أخرى كان يصاب بأزمات عصبية عنيفة ... ومنذ صباه ... روى عنه أخوه « بول » أنه لم يكد ذات مرة يعود مع أسرته من رحلة طويلة فى القرية ، حتى ثارت أعصابه فجأة دون مبرر ، وإذا به يصوب بلية من العاج إلى مرآة « بالصالون » فيشمها ، ويمسك بمقص يمعن به فى تمزيق بعض الستائر الجديدة ، وينبرى لخريطة أوروبا المعلقة على الحائط فيلطح بجرها الأبيض المتوسط بشمع أحمر مصهور ... ويروى كذلك أنه - وكان فى الثالثة عشرة من عمره - كاد يصيب بجراح خطيرة أخاه الذى خرج معه للصيد ... لقد كان فريسة لإحدى تلك الأزمات العصبية الحادة ... على أنه كان مايكاد يحس بهدوء الأزمة التى انتابته حتى يشعر بوازع

نفسى ، حتى يتألم عقلياً بعد أن تألم عصبياً : انه يصبح دمثاً ، رقيقاً ، وينفجر أحياناً بالبكاء كالأطفال لعمق إحساسه بإساءته إلى الآخرين أو بما سببه لهم من ألم ... لقد كان هذا الرجل تعساً ؛ لم يهادنه الألم فى حياته بصورة أو بأخرى ، إلى حد أن الأمر انتهى به إلى أن يحب هذا الألم ، ويعترف بفضلله عليه كما سئرى بعد حين .

الشيء الجدير هنا بالذكر هو أن موسيه عاش بكل إحساسه كرجل ، ولم ينغزل بحساسيته لحظة واحدة عن عالم الشعراء والمفكرين المثالى . انه لم يُعبر نفسه للحياة ، وإنما منحها إياها منحاً ، ولم يكن يرى فيه إلا من خلالها . وكيفما كانت أنواع النقد التى توجه إليه ، فسيظل دائماً بجانبه كل هؤلاء الذين يهزم هذا ماترك من صفحات تنبض بالحساسية الصادقة .. وهنا قد نتساءل عن مبلغ هذا الصدق .. ان تين (Taine) يجيبنا فى دقة ووضوح : يقول : « ... انه - على الأقل - لم يكذب علينا ؛ لم يقل إلا ما كان يشعر به ، وقد قاله كما كان يشعر به . لقد فكر بصوت عال .. لم يعجب به الناس ، وإنما أحبوه ... كان أكثر من شاعر ... كان رجلاً » .

يقول برونيتير Brunetiere إن هذه الكلمة تصاح لأن تكون شعاراً لإنتاج موسيه : « إننى كنت لأشعر بالحب ، وإنما كنت أريد أن أحب ، وكنت أبحث عن ساحب » ! والحق أن موسيه كان يفتش جاهداً عن هذا الحب بلذته وآلامه ، وكان منذ صباه يغبط معاصريه الذين عرفت حياتهم حبا نادراً آثار فضول الناس .. بعث - وهو فى التاسعة عشرة من عمره - بقصيدة إلى جوتنجير (Ulric Guttinguer) يقول فى ختامها :

\* دعنى على الأقل أنظر إلى نفسك

\* كطفل خائف ينحنى نحو الماء

\* أنت لا ينقصك شيء ، جبينك شاحب من قبيلات امرأة  
\* واننى فى حادثة سننى لأغبطك على جراحك وآلامك .

وكان ينشد الحب الجارف الذى يسيطر على النفس  
ويصبح المبرر الوحيد للحياة ، والذى يعجز أمامه كل  
شيء : العقل ، اللذة ، الانهماك فى العمل ، حطة  
المحوب ! .. ثم عرف الحب فى أشكال متباينة ،  
فتعلق به ، ورفعه فى نفسه إلى مرتبة الدين . كان  
« إيمانته » لا يزعزع : ان كفر فبمن يحب لا بالحب  
ذاته ... يقول :

\* لتدع الشك يساورك - ان أردت - فيمن تحب ،  
\* فى امرأة ، فى كلب ، ولكن لا فى الحب نفسه .

انه لم يكن يستطيع أن يفصل الحب عن جميع  
مظاهر حياته ، ولا عن تصوراته ، الجسدية ... كان  
نهباً لزعتين ، هما نتيجتان حتميتان لتأثيرين متناقضين :  
تأثير الثقافة الشاكة التى تلقاها عن القرن الثامن عشر ،  
فضلاً عن ابيقوريته من ناحية ، وتأثير المدرسة  
الرومانسية التى كانت ترفع العواطف إلى درجة القداسة  
من ناحية أخرى . نزعة - اذن - تمسك به فى  
الأرض ، وأخرى تشده نحو السماء ! انسياق مستمر  
نحو علاقات نسائية عابرة تنتهى دائماً بخيبة الأمل ،  
وشوق جارف إلى مثل أعلى ... من هنا الصراع الدائم  
فى نفسه ، والعذاب ؛ ومن هنا انطلاق شاعريته  
وخصوبتها . سيتغنى بالحب - أكثر ما يتغنى - فى  
« الليالى » ، وسيدرسه فى المسرحيات . ولن يكون هذا  
لحب تراچيديا كما هو الحال فى مسرحيات راسين  
(Racine) ، ولا حذلقة كما يظهر فى مسرحيات  
ماريفو (Marivaux) ، ولكنه سيكون طاهراً تارة ،  
وآثماً تارة أخرى ، وجاداً فى نتائجه على كل حال .

وفى عام ١٨٣٨ ، حين يكون موسيه قد شفى من  
مأساته مع صائد ، وحين تكون التجارب الأخرى التى  
تلها قد أدت إلى نوع من التوازن بين نزعتيه المتناقضتين

فى « الحب » ، سيعدل عن المثل الأعلى الذى كان قد  
حسب أن بلوغه فى مقدوره ... وهنا سيطنى جانب  
النثر - فى إنتاجه - على جانب الشعر . الطابع المبتكر  
فى تعاسة موسيه هو إنها لن تزعزع ثقته فى الحب مهما  
كانت العواقب التى يجر إليها ، أليس هو القائل فى  
إحدى مسرحياته ، « كثيراً ما يندع الحب الإنسان ،  
كثيراً ما يجرحه ، كثيراً ما يصيبه بالتعاسة ... ومع  
ذلك فالإنسان يحب ، وحينما يصبح على حافة القبر يدير  
وجهه إلى الوراء لينظر فيقول فى نفسه : لقد قاسيت  
كثيراً ، لقد خُذعت أحياناً ، ولكننى أحببت ... » .

ولقد كان موسيه ذلك الإنسان الذى أحب ،  
فخُذع أحياناً ، وقاسى كثيراً ! كان يعيش فى حلقة  
مفرغة ، يفرط فى مجونه من خمر ونساء بدافع من  
تعاسته فى الحب ، ثم يجد فى آلامه ما يطهر « حبه  
المقدس » من الدنس الذى لحق به من جراء هذا المجون ! .  
والناس من حوله لا يرثون لحاله لأنهم لا يحسون بمثل  
ما يحس به من عذاب ؛ « إن الآلام التى تثير شفقتهم  
هى تلك التى تُفضى إلى الموت » . ويبعث إلى والدته  
الروحىة التى تدعوه إلى الاعتدال ، بقصيدة يقول فيها :

\* آه ! لا ترى فى على رذيلة من الرذائل ؛  
\* ففى هذه الكأس التى أحاول بها التخلص من عذابى  
\* ازرفى - على العكس - بعض العبرات اشفاقاً على  
وعمق جرح موسيه إثر القطيعة بينه وبين صائد  
Sand ، فأذعن لآلامه التى لا تهدأ قليلاً إلا لتعود  
أحد وأعنف ، بل وجد فيها ينبوعاً للتجارب فى الحياة :

\* الإنسان صبي ، والألم معلمه  
وكما زادت وطأة الألم كلما زاد سمو الإنسان :  
\* لا شيء أكثر من ألم كبير يجعلنا أعظم .  
ذلك لأن الألم الشديد يصقل الذكاء والإرادة ، وهو  
بالتالى يعدل التجربة من حيث النتائج ... والإنسان  
السعيد حقاً ، العظيم حقاً ، هو الذى مر بمحن ضخمة ،  
ووفق فى الصمود لها والانتصار عليها .

وفي كتابة موسيه التي لازمته طوال حياته، ووسط  
آلامه المبرحة ، كان كثيراً ما يبكي : أما عبراته التي  
كانت تسيل على خديه فقلما شاهدها إنسان ، وأما تلك  
التي سألت من قلمه فتعدّ أصدق صيحات عرفها  
الأدب . وهو يعتز بها ويجد فيها سلوى وعوضاً عما  
فقدته في حياته : حدث ذات يوم ( ١٨٤٠ ) أن وقع  
بصر صديقه الحميم « تاتيه » P. Tattet على قصاصة  
من الورق موضوعة على منضدة الشاعر في القرية ،  
فأرسلها إلى « سانت بيث » ليطلع على ما كان مدوناً  
عليها بالقلم الرصاص .. إنه الأبيات التالية :

- \* لقد فقدت قوتي وحياتي ،
- \* وأصدقائي ومرحى ،
- \* فقدت حتى اعتزالي ،
- \* الذي كان يهيئ للناس أنى عبقرى .

\*

- \* حين عرفت الحقيقة ،
- \* حسبت أنها صديقه ،
- \* وحين فهمتها وشعرت بها ،
- \* أصبت بالتقرز منها .

\*

- \* ومع ذلك فهي خالدة
- \* والذين استغنوا عنها في هذه الدنيا
- \* جهلوا كل شيء

\*

- \* الله يتكلم فينبغي أن نرد عليه ؛
- \* ان الخير الوحيد الذى يتبقى لى في هذا العالم
- \* هو أننى بكيت أحياناً

قلت إن هذه الأبيات كتبت في عام ١٨٤٠ . في  
العام السابق كاد موسيه أن يضع بنفسه حداً لحياته ...  
وهو الآن يحس بفقر قريحته المتزايد ، وبأن معينها يكادُ

أن ينضب . وانسر في هذا ليس خفياً عليه : إنه يحطم  
بشئ أنواع الإفراط ذكائه ، يوماً بعد يوم ، بل ساعة  
بعد ساعة ... إنه يصنع كارتته الوشيكة بنفسه ولكن  
بغير إرادة ... الأسى يحز في قلبه ، ولكنه عاجز عن  
أن يحمى نفسه من نفسه !

ثم أخذ الموت يدنو وشيكاً منه ؛ كل شيء في  
موسيه كان يفسح له المجال رحباً ، علله الجسمانية  
والنفسية على السواء ! كان قد أصيب وهو في الثالثة  
والثلاثين من عمره بالتهاب رئوى كاد يعصف به ،  
وظل يعيش في هدوء يائس لا يلمح فيه سوى معالم  
الخرمة والإخفاق في الحياة ، بالرغم من أن هذه الحياة  
كانت تدلله بين الحين والحين بما يتيح له من انتصارات  
أدبية هزيلة لاسمو فيها ... إنه الآن في السابعة  
والأربعين : صحته متدهورة ، ومرض القلب يواصل  
تخطيطه ، وثوراته العصبية يصعب أخذها ، والقلق  
يضنيه ، والأرق الدائم يعقد هذه الأمور جميعاً ...  
إن أيامه الأخيرة أليمة تدعو إلى الرثاء ، وهو يصف  
ما يعانيه خلالها في آخر أشعار عُرفت له :

\* منذ ستة عشر شهراً وساعة الموت

\* تدق في أذنى من كل جانب

\* منذ ستة عشر شهراً مليئة بالضجر والسهر

\* أحس به في كل مكان ، وأراه في كل مكان

\* وكلما ازداد تخبطى في البؤس

\* كلما تيقظت في نفسى غريزة التعاسة

\* وما أكاد أهم بالتقدم على الأرض خطوة واحدة ،

\* حتى أشعر بأن قلبى يتوقف فجأة ؛

\* إن قوتي في الصراع تتضاءل ، وتبذل بسخاء .

\* لأننى سأظل في معركة دائمة حتى الراحة الأخيرة

\* مثلى كمثل جواد أضناه التعب

\* شجاعى التي انطفأت جذوتها تترنح وتتخاذل .

وأقبل الموت في أول مايو سنة ١٨٥٧ ، في الساعة  
الواحدة صباحاً . . . وكان مصمماً هذه المرة ! وقبل  
أن يلفظ موسيه نفسه الأخير ، نطق بكلماته الأخيرة !  
« النوم ... وأخيراً سأنام » ؛ وأغمض عينيه إلى الأبد ،  
فكان الخلاص !

## ( ٢ )

ليس مهماً أن نذكر هنا أسماء ما أنتجه موسيه من  
شعر ونثر ، فهي مذكورة في جميع كتب تاريخ  
الأدب الفرنسي . إنما الذي يعنينا حقاً هو ما يمكن أن  
نستخلصه - من مجموعة هذا الإنتاج - من آراء موسيه  
ونظرياته وفنه . لا بأس مع ذلك في أن نمر سريعاً على  
أنواع هذا الإنتاج :

١ - في ميدان الشعر : أهم ما نشره موسيه « حكايات  
من أسبانيا وإيطاليا » Contes d'Espagne et d'Italie  
و « أشعار جديدة » Nouvelles Poésies ، و « الليالي »  
وهي قطعاً أروع ما كتب ، وسوف نتناولها بالتفصيل .

٢ - في الميدان المسرحي : أهم ما كتبه موسيه  
للمسرح : « لا يُمزح مع الحب » (On ne badine  
pas avec l'amour) ، « لا يجب أن يُقسَم بشيء »  
(Il ne faut jurer de rien)

٣ - في ميدان النقد : « رسائل ديوبى وكوتونيه »  
(Lettres de Dupuis et de Cotonet) ، التي  
يسخر فيها من اتجاهات الرومانسيين .

٤ - في ميدان القصة : أهم ما كتبه في هذا المجال  
« اعتراف في العصر » (Confession d'un enfant  
du siècle) وهذه القصة (١٨٣٦) جديرة بأن يُقرَدَ  
لها بحثٌ في « سلسلة تراث الإنسانية » لأنها بمثابة وثيقة  
تصف ما كان عليه جيل موسيه من حالة عقلية وحالة  
نفسية ، فتسجل انفعالاته من خيبة أمل ، وتثبط عزيمة ،  
وقلق ممض ، ونزوع إلى العزلة ، واستعداد للكآبة ...  
النخ ، كما تحاول أن تهتدي إلى علل كل هذا . وهي

تلخص الآراء والاتجاهات والمواقف المعنوية والانفعالات  
التي تكون شخصية موسيه . إنها مركز إنتاجه كله ،  
وفيها يمكن العثور على منابع كل ما جادت به قريحة  
موسيه بعدها من إنتاج ... وهي الصدى « العام » لمغامرة  
البندقية (مأساته مع جورج صاند George Sand) :

ولقد كتبها موسيه ليدافع فيها عن عشيقته السابقة ضد  
الشائعات التي كانت قد تواترت حولها إثر تلك المغامرة .  
وأراد أن يمجّد فيها قصة حبه ، بحيث تصبح أسطورة  
يسجلها تاريخ الأدب كأروع قصص الحب .  
إن موسيه أصغر وأجراً جميع الشعراء الذين  
ينتمون إلى الحركة الأدبية التي بدأت في فرنسا في  
سنة ١٨٢٨ . شعره يتميز بالعاطفة ، وهو لم يعرف  
الأدب مثله منذ فولتير . هذه العاطفة هي انعكاس  
للمأساة النفسية التي سيطرت عليه ، وهي التي تكفل  
وحدة إنتاجه وتضاعف أهميته .

## نظرياته الأدبية :

أولاً - « زيف » الرومانسيين : لم يقتنع موسيه  
بفن الرومانسيين أو على الأقل لم يتحمس له ، ومع  
ذلك فقد قلدهم في بداية حياته الأدبية . كانوا  
يجبون إيطاليا وأسبانيا ، فنقل قراءه إلى البندقية وإلى  
مدريد .... كانوا شغوفين بقصور العصور الوسطى ،  
فتصنع التحمس أمام الأديرة القديمة والطرز القوطي ....  
كانوا يميلون إلى الانفعالات العنيفة والغيرة الحادة  
فكتب Don Paez ... كانوا يهيمون بمغامرات الحب  
الغامضة ، فكتب Mardoche التي يستطرد فيها  
استطرادات متتابعة تملأها بالغموض ... ثم أدرك  
« زيف » فهم ، فاستعاد استقلاله . لم يعد رومانسياً  
كما كان في نظر الرومانسيين ، ولم يكن كلاسيكياً  
بالرغم من حبه لكثير من الكلاسيكيين ، وإنما وقف  
وسط المدرستين . وظل بمعزل عنهما بفضل فنه  
الأصيل . ولقد جاء هذا الفن « خلاً وسطاً » :

أخذ عن الرومانسية نزعتها المتحررة ، وعن الكلاسيكية إحساسها بالحقيقة البسيطة .

ثانياً - الصدق في التعبير : إن سر الشعر ليس في النظريات والقواعد ، وإنما هو يستمد إصالة من التعبير الطليق عن الانفعالات الصادقة ولا سيما الألم : يقول :

\* ان أكثر الأغاني بأساً لى أجملها ،

\* وإنى لا أعرف أغاني خالدة كلها نجيب في نجيب .

وكتب إلى أخيه يقول : « ان ما ينبغي للشاعر هو الانفعال .... إننى - وأنا أكتب شعراً - حين أشعر بنبضة من نبضات قلبي أجدنى واثقاً من أن بيتى من أجود الأنواع التى أنتجها » - لقد كان موسيه يؤمن بأن ليس أحط من أن يتخذ الإنسان من الشعر مهنةً يُجبر فيها قلمه على التعبير عن أحاسيس لا يشعر بها .

( ٣ )

كتبت جورج صاند George Sand إلى ألفريد دى موسيه ابان محنتهما النفسية تقول « يا بنى المسكين ! إنك تبدو وكأن لعنة غامضة تنصب عليك . إنك طاغية نفسك ، لا تستطيع أن تكون سعيداً » وحقاً إنه لن يكون سعيداً منذ مغامرة البندقية حتى مماته ، فطالما نادى الحب ، فأقبل إليه بأعنف أزمة عرفها في حياته . صحيح أنها حطمت ، وافنت قبل الألوان مواهبه وعمره ، ولكن بعد أن جعلت فيه من الطفل رجلاً ، ومن الشاعر اللاهى شاعر « اللبلى » الخالدة .... لا بد لنا إذن - قبل أن نخل « اللبلى » - من أن نتبع أطوار ذلك الحب الذى أحس به موسيه لأول مرة في حياته ، وأحس به بعنف كما لم يُعرف العنف إلا في حالات قليلة خلدت لندرتها ... فمن مأساته المشثومة نبعت « اللبلى » ، هذه القصائد الخالدة التى لن تُفهم ولن تُتذوق إلا في ذلك الضوء الذى

ينير كوامن نفس موسيه البائسة اليائسة ، التى عاشت من أجل الحب ، ثم ماتت في سبيله .

بدأت علاقة موسيه وصاند في عام ١٨٣٣ ؛ كان هو في الثالثة والعشرين ، وكانت هى في التاسعة والعشرين . كلاهما من بيئة تختلف عن بيئة الآخر : هو يرتاد المقاهى والحانات الباريسية ، وهى تغشى المجتمعات الأدبية والفنية . سمع عنها من صديقه Paul Tattet ومن آخرين ، وسمعت عنه من بعض الكتاب ولا سيما « سانت بيث » الذى اقترح اسمه عليها ليدخل في حياتها بعد أن انتهى الحب بينها وبين جول صاندو Jules Sandeau . ورفضت صاند العرض ، لأن سمعة موسيه كأحد أنصار الدانديزم dandysme كانت تثير احتقارها له ، وتجعله في نظرها أدنى مستوى من هؤلاء الفنانين الذين كانت تلتقى بهم في « الصالونات » الأدبية ؛ ثم أن صيته الأدبى لم يكن كافياً لأن يحظى باعجابها ، هى التى نشرت Valentine, Indiana فخطت بهما درجتين من درجات مجدها الحقيقى في مجال القصة .

وتمر عدة أشهر ، ويقم « بولوز » Buloz مؤسس مجلة العالمين (Revue des deux Mondes) حفل عشاء لأسرة مجلته (يونيو ١٨٣٣) ، وتشاء المصادفة البحتة أن يجلس موسيه وصاند أحدهما بجانب الآخر ، وأن يتصل بينهما حديث طويل تدرس صاند من خلاله موسيه ، فتعجب به ، وتذكر أن رأيها السابق عنه كان مشوهاً . هنا تبدأ القصة .

كيف كانت تجارب كل منهما العاطفية قبل هذا اللقاء ؟ : أما حياة موسيه العاطفية فكانت هزيلة لا تسجل سوى ذكرى مغامرتين خائبتين : مغامرته مع تلك المرأة التى تُعرف في تاريخ الأدب بسيدة Saint-Ouen ومغامرته مع امرأة أخرى مجهولة - (ربما مدام de la Carte) - هى على كل حال

تلك الى قص خيانتها في الجزء الأول من كتابه « اعتراف في العصر » . كدمتان إذن متلاحقتان يصاب بهما قلبه الغض .....

وأما جورج صاند فكان ماضيها مثقلاً بالاحداث .  
إحدى عشرة سنة من حياتها زاخرة بتجاربها الزوجية وبمغامراتها المثيرة . تزوجت في الثامنة عشرة من Maurice Dudevant ، ولم تنقض على زواجها ثلاثة أعوام حتى اندفعت نحو أول مغامرة عاطفية : عرفت Aurélien de Sèze خلال رحلة قامت بها في جبال البرانس ، واستمرت علاقتهما عامين . ثم دخلت مع Ajassan de Grandsagne في مغامرة أخرى دامت أكثر من عام . وفي سنة ١٨٣٠ عرفت في قصر Charles Duvernet بالكاتب الصحفي صاندو Sandeau فأغرمت به هو الآخر .. كانت في Nohant فلحقت به في باريس بعد ستة أشهر ، ولم تمر ستة أشهر أخرى حتى كانت تعيش معه في بيت واحد بالحي اللاتيني يقع على إحدى ضفاف السين . وفي عام ١٨٣٢ نشرت قصتها Indiana باسم مستعار اشتقته من اسم عشيقها (Sandeau) ، هو Sand الذي ظل علماً عليها .. ثم تنهت العلاقة بين العشيقين في مارس ١٨٣٣ لتبدأ في ابريل علاقة أخرى ، بين صاند وميريميه Mérimée ؛ وانفصمت هذه العلاقة سريعاً لأسباب لم تتورع صاند عن إفشائها ، أسباب تسمى - سواء كانت صادقة أو كاذبة - إلى رجولة ميريميه ، وبشر افشاء صاند لها الامتعاض والاحتقار نحوها .. لقد أقبل شهر يوليو ، ليأتي دور ألفريد دي موسيه في حياة تلك المرأة التي تهتك باسم التحرر !

وإثر تقابل الشاعر والكاتبة في وليمة « بولوز » Buloz يتبادلان الانتاج الأدبي ، يرسل اليها قطعة شعرية من ثمانية وثلاثين بيتاً ، فرد عليه ببعض فصول من روايتها Indiana .. وترحب بزيارته ، ويتحدثان

في الأدب ... وتكثر زياراته ، ويتحدثان في غير الأدب أو لا يتحدثان في شيء . . . وتكتب هي إلى « سانت بيث » تنبئه بأنها سعيدة بعلاقتها مع موسيه ، ويستنتج المعاصرون من رسائلها ومن كلامها أن اليوم التاسع والعشرين من يوليو قد سجل زلة جديدة من زلاتها ! ...

وفي سبتمبر يقومان معاً برحلة إلى « فرانشار » بغابة فونتنبلو Fontainebleau يصاب موسيه خلالها بأزمة عصبية حادة تُفزع صاند . وفي بداية ديسمبر يرحلان معاً إلى البندقية ويصلان اليها بعد رحلة طويلة شاقة ...

وينقضي شهريناير ( ١٨٣٤ ) بخير ، كل منهما محصل لذته بطريقته الخاصة : هي تسهر لتكتب كل ليلة عشرين أو ثلاثين صفحة من رواياتها ... وهو ينكب على احتساء الخمر ، فيصب « اللتر تلو اللتر » من النبيذ في جوفه . ويمرض الرجل ، وتجيئ الأزمة عنيفة تهزه هذا ؛ وتقلق صاحبه عليه ، وتسهر على رعايته وتستدعي له طبيباً يدعى باجيلو Pagello . ويعتني هذا الطبيب بمريضه عناية فائقة ؛ فيخيل إلى صاند أنه يلتقي معها في الشفقة على صاحبها ، فتجذب اليه وتقع في حبه ! ! .. ويفهم موسيه أشياء كثيرة من أسارير وجهي صاحبه وطيبه حين يلتقيان ، وربما يكون قد لاحظ ذلك الموقف العاطفي الذي تناولا خلاله الشاي في قده واحد ! ! .. وتحرك الغيرة في نفس المسكين ، وتثور بينه وبين صاحبه المستهتر مناقشات عاصفة : يدافع هو عن الكرامة ، وتدافع هي عن الحرية ! ! ثم يهدأ ، ويجد نفسه متقاداً إلى التضحية بدافع من حبه : لتسعد صاند Sand إذن مع Pagello مادام هو لا يكفل لها السعادة ! ! سيظل واهماً إلى حين ، وحين ستتصارع مثالية قلبه مع واقعية عقله سيكون رد الفعل ، أي ستكون أحد أزمات نفسية عرفها ...



ثم يشفى موسيه ، فينشد النسيان في بساطة ،  
ويودع صائد وعشيقتها في ود ، معبراً لهما عن أصدق  
أمنيته ! يغادرهما في ٢٩ مارس ، ويصل إلى باريس  
في ١٩ ابريل . ومن رحلته الطويلة يتبادل مع صائد  
رسائل يخلطان فيها الحب بعاطفة البنوة وعاطفة الأمومة  
والزمانة والصدقة الخالصة !.. وفي باريس ينغمس  
موسيه في ملذاته ليطمئن صائد على مصيره : انه يبحث  
عن حب جديد !... ومن إيطاليا تدعو صائد له  
بالتوفيق في العثور على امرأة مثالية لتوليه أكثر مما  
أولته هي من الحب والرعاية ... وتتوالى الحلقات :  
أما هي فقد بدأت تتحدث عن « باجيلو » وعن مغامرتها  
معه حديثاً يتم عن الاستصغار ، وعن بدء تسرب  
الملل إلى نفسها من جديد ... وأما موسيه فيكتب إليها  
قائلاً انه استحال إلى رجل بعد أن كان طفلاً عابثاً .  
ويزعم أنها هي التي أحدثت فيه هذا التغير ، ويعبر لها  
عن اعترافه بفضلها ! وينبئها بأن طوراً جديداً سيبدأ  
في حياته !...

وفي أغسطس تعود صائد مع عشيقها إلى باريس  
ويتقابل معها موسيه ، ويكيان معا . ثم يسافران :  
هو إلى « بادن » بألمانيا ، وهي إلى Nohant . وخلال  
رحلته يكتب إليها رسائل تنطق بأعنف أنواع الحب  
التي عرفها القلب الإنساني .. ثم يعودان إلى الالتقاء في  
باريس ( أكتوبر - نوفمبر ) ، وتستمر علاقتهما متقطعة  
تتناوب فيها الأحاديث العاطفية وساعات العبادة !...  
وهنا يبدأ فصل جديد في المأساة : ان « باجيلو » لم  
يكن جديراً بصائد ، وقد فطن إلى قدر نفسه فالتزم  
حدوده وقتل راجعاً إلى بلاده ... أما صائد فقد بدأ  
رد فعل مهزلة البندقية يدب في نفسها كما كان الحال  
بالنسبة إلى موسيه بعد عودته إلى باريس ... إن الألم  
يستبد بها الآن أكثر من استبداده بموسيه وقد أخذ  
يتباعد عنها . وهي تشعر بالصغار ، وتبكي ، وتنتحب ،  
وتجد نفسها تائهة ، وتلتمس التوجيه لدى صديق مشترك

هو « سانت بيث » ! ... ماسر هذا التباعد الآن ؟  
ألم يكن قد كتب إليها من بادن : « ما أحب رجل  
مثل حبي لك . إنني ضائع ، إنني غارق في الحب » -  
« إنني أحبك يا لحمي ، يا عظامي ، يادمي . إنني ميت  
من الحب .. ميت من حب ليس له نهاية ولا اسم ..  
حب طائش ، يائس .. لا ، لن أشفى ، لا لن أحاول  
أن أعيش .. يقولون ان لك حبيباً آخر ، وأنا أعرف  
ذلك جيداً ، الأمر الذي يمتني ، ولكني أحب ...  
أحب .. فليحولوا بيني وبين الحب » ... ثم تنطلق  
من نفسه المعذبة هذه الصيحة : « ... لا يجب أن يرى  
أحدنا الآخر . الآن لقد انتهى كل شيء . لقد قلت  
في نفسي انه ينبغي علي أن أحب امرأة أخرى ، وأن  
أنسى حبك أنت ، وأن أتشجع ، سأحاول ذلك على  
الأقل ... » لقد صار بعد أن عاد إليها وعادت إليه  
يفضل أن يعيش في آلامه !... وفي الوقت الذي كان  
يرى فيه أن الحياة لم تعد ممكنة بينه وبينها ... كان حبها  
له يتخذ هذا الطابع المفزع الذي يجعلها - بالرغم من نداء  
العقل - لا تستطيع عنه فكاً - كتبت إليه تقول :  
... كنت أريد أن أقول لك سلفاً ما يخشى منه  
بيننا . وكان ينبغي أن أكتفى بكتابته اليك ... إلا أن  
القدر قد قادني إلى هنا . أنلومه أم نباركه ؟ اني أعترف  
لك بأن هناك ساعات يكون الخوف فيها أقوى من الحب »  
وكانت الأشهر الأخيرة من عام ١٨٣٤ أشهر  
عصية هي أخرج فترة في حياة موسيه وصائد على  
السواء .. ضجر موسيه وانسحب في هدوء .. وقابلت  
صائد موقفه بالسكون الذي يسبق العاصفة . ثم ثارت  
هذه العاصفة فاقتلعت من نفسها صفحات خالدة هي  
من أروع ما عرف الأدب ، صفحات هي شرائح دامية  
من قلبها المعذب : « إنني أستنجد عبثاً بالغضب . إنني  
أحب وسأموت من حبي إذا لم يصنع الله معجزة من  
أجلي - منتصف : الليل إنني عاجزة عن العمل . باللعزلة

من حملت ... » ... وستخرج منه « الليالى »  
 الخالدات .. مأساة موسيه مأساة نفسية أكثر منها عاطفية ،  
 ذلك لأن إخفاقه فى ذلك الحب الذى سبق علاقته بصائد  
 والذى وصفه فى Rolla جعله يعبر فى نهاية هذه القصيدة  
 عن أمله فى أن يخلصه من ألمه حب جديد . وانتظر  
 فى صيف ١٨٣٣ مجئ هذا الحب كمن اقترف إثماً  
 ويستلهم عفو الله . وقوة هذا الأمل هى التى تفسر عمق  
 الخيبة التى بلئ بها فى حبه لصائد . كان يتوق إلى امرأة  
 تستطيع انتزاعه من نفسه ، امرأة جديرة بحبه ، وكفيلة  
 بإعادة الثقة إليه ، وبإنارة شعلة المثل الأعلى فى قلبه ..  
 ولكنه نكب .. لن تقدر أشد النساء اختلافاً عن صائد  
 على إعادة السكينة إليه .. سيعرف كثيرات ، دون أن  
 يثق فى واحدة منهن ، ودون أن يكفر — مع ذلك —  
 بالحب ! ... سيعرف مدام Jaubert أخت صديقه  
 Alton-Shée ، وسيكون لعلاقته بها صدى فى  
 La Nouvelle d'Emmeline ؛ وسيعرف جارة له تدعى  
 Louise ويحكى قصة خيانتها فى Frédéric et  
 Bernerette ؛ وسيعرف Mimi Pinson ويحلل  
 شخصيتها فى قصة تحمل اسمها ؛ وسيصادق الممثلة  
 الشهيرة Rachel التى أنقذته من فكرة الانتحار التى  
 كانت مسيطرة عليه بأن دعتة إلى ملكيتها فى Montmorency ؛  
 وسيعرف الأميرة الإيطالية Belgiojoso التى كانت قد  
 هاجرت إلى فرنسا لإثر القلاقل السياسية التى سادت فى  
 بلادها ، ثم سينتقم منها فى Sur une morte ؛  
 سيعرف هؤلاء وغيرهن من النساء ، ولكن سيعجزن  
 جميعاً عن إسعاده .. شئ واحد سيبقى له من حطام  
 علاقاته المتتابة ؛ هو يقينه من أن الحب هو الحقيقة  
 الوحيدة فى هذا الوجود !

(٤)

لا يجب أن نفكر فى تلخيص « الليالى » ، فهى  
 ليست بحثاً ولا سرداً ، وإنما نبضات قلب محطم ،

يا للعزلة ! ... لست أستطيع أن أكتب ولا أن أصلى ...  
 أريد أن أقتل نفسى ... من ذا الذى يحق له أن يحول  
 بينى وبين الانتحار ... آه يا طفلى ! كم تشعر أمكما  
 بالنعاسة ! ... » — « أيها الطائش ، إنك تهجرنى فى  
 أسعد لحظة من لحظات حياتى .. أليس كثيراً أن تقمع  
 كبرياء امرأة ، وأن تلقى بها على قدميك ؟ يا قلقي  
 فى الحياة ، يا حبي المشوم ، إني على استعداد لأن أضحي  
 بكل حياتى فى سبيل يوم واحد أحظى فيه بخنانك .  
 ولكن أبداً ، أبداً . إن ذلك يكون شنيعاً ... سأذهب ،  
 ها أنا ذاهبة . — لا ، بل لأصبح ، لأعوى ، ولكن  
 أبداً ، أبداً . إن ذلك يكون شنيعاً ... سأذهب ،  
 ها أنا ذاهبة ... لا ، بل لأصبح ، لأعوى ، ولكن  
 يجب ألا أذهب ، فهذا رأى سانت بيث . وتساوم الله :  
 « آه رد إلى حبيبى وأنا أصبح متبلة ؟ أبلى بركبتى »  
 « بلاط الكنائس » . ويرحها الهوى ، وتقتلها اللوعة  
 وتقص فى جنون شعرها الجميل ، وتبعث به إلى موسيه !  
 وتهيم كالشبح بعينين زائغتين ، وبوجه ينطق بالأسى ،  
 وتطوف ببيتها أو تتسلل إلى سلم هذا البيت والعبرات  
 تتساقط على وجنتها .. ويقرر موسيه الرحيل من فرنسا  
 فتكتب إليه : « يا حبي الوحيد ، يا حياتى ، يا أحشائى  
 يا دمي ، اذهب ، ولكن اقتلنى وأنت ترحل » ... إلا أن  
 موسيه لم يحزم أمتعته كما وعد ! ؛ هنا فرت صائد من  
 « سجنها » ، ولاذت ببيتها الريفى فى Nohant ( ٧ مارس  
 ١٨٣٥ ) ... وظن كل منهما أن الفراق قد رد إلى  
 نفسه الهدوء والسكينة . كانا واهمين ... أما جورج  
 صائد فلن يلتئم جرحها إلا بعد وقت طويل ، فى معمعة  
 حياتها المفرطة فى التحرر والخصية مع ذلك ... وأما  
 جرح موسيه فسيظل عميقاً دامياً طوال حياته . سيخرج  
 منه فى عام ١٨٣٦ « اعتراف فى العصر » ، وهو قربان  
 يقدمه إلى صديقه التى كان قد كتب إليها « لن أموت  
 قبل أن أكتب كتاباً عني ، وخاصة عنك ... لا يا خطيبتى  
 إنك لن ترقدى فى هذه الأرض الباردة قبل أن تعرف

تخاذل الشاعر وكسله ، وتعيب عليه التماسه الوحى من مغامرات متجددة دواماً ... ونجد أن الشاعر يرد عليها في غير مبالاة بأنه يتحتم عليه دائماً « أن يحب دون انقطاع بعد أن أحب » ! . ثم إن هذه القصائد تتناول هذه المسألة : هل في وسع الشاعر الذى يتألم أن يظل شاعراً ؟ ... لا ينبغي مع ذلك أن نظن أنها تتخذ طابع بحث عقلى يناقش الصلات التى تربط بين الفن والقلب ؛ إذ أن للعاطفة فيها مركز الصدارة .

### ليلة مايو

حوار بين الشاعر المتخاذل وبين الهة الشعر المشفقة على عبقريته الراكدة . إنها تدعوه إلى أن يمسك بقيثارته ليتغنى بالربيع والحب والمجد ... وكذلك بالسعادة أو ما يشبه السعادة ، وباللذة أو بظل اللذة ... أما هو فمرىض ترهقه العلة فيتوسل ألا يُجبر على الكلام ... وتلح الهة الشعر فى دعوتها إلى التضحية ونكران الذات مقدمةً إليه مثلاً فيهما : البجعة الذى خرجت تبحث عن غذاء لصغارها ، فخاب مسعاها ولم تصد شيئاً ... فلما عادت إليها لم تجد ما تطعمها به سوى قلبها وأحشائها ... إن خيال الشاعر يتحمس أحياناً فى هذه القصيدة بحيث يستحيل تصويرُ الألم فيها إلى لوحة رمزية كما هو حال بالنسبة لموت البجعة ... يقول سانت بيث : « إن ليلة مايو ستظل واحدة من أكثر الصيحات الصادرة عن قلب فياض تأثيراً وسمواً ... »

### ليلة ديسمبر :

فى هذه القصيدة الرائعة يخيل للشاعر وكأن إنساناً غريباً عليه يرتدى ملابس سوداء ، ويشبهه كأخيه ... يخيل إليه وكأنه يصحبه فى كل مكان ، يشهد أفعاله ولا يعلق عليها ، ويحس بالآلامه فيشفق عليه ولكن لا يواسيه .... ويحاول الشاعر أن يحل لغز هذا الشبح الذى لا يرد عليه إلا بعد وقت طويل .... ليقول له

وعبرات شاعر أضناه الهوى ، وقطرات تنزف من جرح إنسان عاش ليحب ، ومات شهيد الحب . « الليالى » تُقرأ ، ثم تعاد قراءتها بإمعان وتأمل ، فهى من الشعر الخالد الذى يهز نياط القلوب ؛ وهى تلقى أضواء على ظلال النفس البشرية ، وتحلل نفسية الشاعر الذى يستعذب الألم من أجل مثله الأعلى . ثم أنها تحلل كذلك الصلة بين هذا الألم وعبقرية الفنان . حسبنا إذن أن نعلق عليها ، وأن نسوق بعد ذلك من الإستشهادات ما يبرز قيمتها ويحفز للرجوع إليها .

منذ مأساة الفريد دى موسيه بفصلها فى « فينيسيا » وفى باريس ، وإلهامه — من قريب أو من بعيد — لا يصدر إلا عنها ، ولا يصدر إلا مصطبغاً بها ... مد جاءت كحد فاصل بين حياتين : تلك التى سبقت الرحلة المشثومة ، وتلك التى تلتها ؛ بحيث يمكن القول : « موسيه ما قبل إيطاليا » و « موسيه ما بعد جورج صاند » ! .. و « لياليه » تبرز لنا بدورها الصراع بين رجلين : بين موسيه الذى يعيش فى كآبة وضجر ويأس وألم لا ينقطع ... وموسيه الشاب الذى تملأ جوانحه الثقة فى عبقريته ، والتفاؤل من أجل إنتاجه الخصب . وهذه الليالى ليست على وتيرة واحدة ، وهى أربع : « ليلة مايو » ( مايو ١٨٣٥ ) ، و « ليلة ديسمبر » ( ديسمبر ١٨٣٥ ) ، و « ليلة أغسطس » ( أغسطس ١٨٣٦ ) ، و « ليلة أكتوبر » ( أكتوبر ١٨٣٧ ) . ومن الخطأ أن يُظن أنها جميعاً تتميز بوحدة العاطفة ، صحيح أن ذكرى جورج صاند تفعمها كلها ، إلا أن الوحى الشاعرى يرجع فيها إلى انفعالات أحدث وإلى علاقات عاطفية معاصرة لكتابة القصائد ، علاقات كان من شأنها أن تحك الجرح فتثير المشاعر القديمة ... ينبغى القول إذن إن مسألة الخلق الفنى تحتل فى هذه القصائد مكاناً كبيراً . والشئ الذى يؤكد هذا هو أننا نجد مثلاً — فى ليلة أغسطس — أن الهة الشعر تن من

إنه ليس إلهاً ولا شيطاناً وإنما هو أخ له أرسلته السماء ليخفف من آلامه : أنه « العزلة » .... في هذه القصيدة يسلم موسيه بوجود الله ، ثم يتغنى بالروابط بين النفس البشرية والالهامات . قطعة خالدة من وحي روحى لا تشوبه أية عاطفة دنيوية

### ليلة أغسطس :

حوار جديد بين الشاعر وإلهة الشعر . إنها تعود إليه بعد طول انتظار ، بعد أن فقدت الأمل في أن يناديه . إن أيامه الجميلة قد ولت إلى غير رجعة ، وهى لم تعد قادرة على مواساته وتخليصه من برمه بالحياة ؛ إنه الآن يدعن إذعائاً لعذاب قلبه ، لقد « أقسم أن يعيش وأن يموت بالحب » ، وأن يبحث — كلما هدأ ألمه — عن ألم جديد ! ... يقول « لأننى أحب الألم » !

### ليلة أكتوبر :

يبدو أن إلهة الشعر لم تكن — في ليلة أغسطس — جادة في تصوير يأسها ، كما يبدو أن الشاعر لم يكن مدعناً لألمه إلا اذعائاً عابراً ، أو على الأقل منقطعاً .. في هذه الليلة يتصل الحوار بينهما مرة أخرى . تبدأ الحركة متباطئة لتصور ما نزل على الشاعر من هدوء وما شاع في نفسه من صفاء : فهو يؤكد لإلهة الشعر أنه برأ تماماً من علقته ، وأنه صار يشعر بلذة وهى تحدته عن آلامه القديمة ... ويهم بأن يحكى في هدوء قصة ليلته السابقة التى أمضاها فى انتظار « الحائنة » . هنا نحس باقترابنا من الأبيات الثائرة ... ويظل الشاعر ممكناً نفسه ، إلى أن تثور العاصفة فجأة ... فتسرع الحركة ، وتصبح عنيفة ، وتبدل إلهة الشعر جهداً من أجل تهدئته .... ثم تنتهى الليلة بالتسامح والعفو والتفاهل الذى يبشر باستئناف العمل : إن الشاعر يقسم أن ينزع من نفسه البغضاء ، يقسم

بكرم الخالق ، وبعظمة الطبيعة ، وبالغابات والمراعى ، وبقوة الحياة ....

في انتاج ألفريد دى موسيه الذى أعقب مأساة فينسيا قصيدتان يروق لكثيرين من النقاد أن يعتبروهما ضمن « الليالى » ، إذ أنهما تشبهاتهما من حيث بواعث الحساسية ، كما أنهما بمثابة الفصلين الأخيرين فى تلك المأساة . هاتان القصيدتان هما : « الأمل فى الله » (L'Espoir en Dieu) (فبراير سنة ١٨٣٨) و« ذكرى » (Souvenir) (فبراير ١٨٤١) .

### الأمل فى الله

فى هذه القصيدة الطويلة يتجه ألفريد دى موسيه إلى الله بأمل وثقة . وهى لكى تفهم جيداً ينبغى أن نتذكر أن الأزمات التى تخبط فيها الشاعر كانت فى الواقع أزمات نفسية أكثر منها عاطفية ، أو هى — على الأصح — أزمات نفسية من خلق اختلال عاطفى . كان الحب يرتفع فى حياة موسيه — كما قلنا — إلى مرتبة الدين ، بل كان الدين الوحيد الذى يشعر بأن قلبه قادر على أن يعتنقه ويتقرب عن طريقه إلى الله . من هنا كانت النتائج الحتمية لتلك الأزمات هى الشك الذى يؤدى إلى قلق العقيدة . ولو أن إيمان موسيه بالله كان راسخاً لجاءت مآسى الحب أقل حدة فى حياته .... وحين انكب فى عام ١٨٣٧ على دراسة كتب الفلاسفة منذ أفلاطون حتى Laromiguière الذى توفى فى عام ١٨٣٧ ، كان فى الحقيقة يبحث عن اليقين ليخلصه من القلق . فلقد كان يقول إن الكنيسة تخفى الله عن عينيه وراء العقيدة ... المسيحية تفرعه ، والإلحاد ينفره ، والطريق — فى نظره — إلى معرفة الله هو انطلاقة نفسه باليقين .

### الذكرى

إن الذكرى تسمو بالنفس البشرية ، وإن الألم الذى سببه الحب يزول مع الزمن ، تاركاً العاطفة —

حتى بعد خمودها — بجوهرها الصافي الأصيل .....  
 في عام ١٨٤٠ ، — أى بعد بدء القطيعة بينه وبين  
 جورج صاند بستة أعوام — اجتاز موسيه بالسيارة  
 خلال رحلة له غابة Fontainebleau ... كانت  
 أشباح ذكرياته تظهر له في كل شبر من هذه الغابة  
 التي شهدته مع صاند حين كانا في أوج حبهما .....  
 ثم عاد إلى باريس . وطالعه ذات يوم وجه  
 محبوبته القديمة في أحد أبهاء مسرح الايطاليين  
 Théâtre des Italiens ؛ فلما رجع إلى بيته أمسك  
 بقلمه وكتب قصيدته « ذكرى » ( ١٥ فبراير سنة ١٨٤١ ) .  
 قصيدة خالدة يقال إنه كتبها في جلسة واحدة . فكرتها  
 الأساسية هي أن قيمة العاطفة ليست فيما تمنح من  
 سعادة أو تسبب من ألم ، وإنما في صدقها وقوتها .  
 مائة وثمانون من الأبيات الرائعة التي تحتتمها معان  
 كهذه تنفذ تواء إلى القلوب :

- \* كل ماقلته لنفسى : « في هذا المكان وهذا الزمان
- \* لقد أحبتني ذات يوم وأحببتها ؛ كانت جميلة .
- \* وأخفيت في نفسى الخالدة هذا الكنز
- \* الذى أحمله إلى الله .

( ٥ )

موسيه شاعر عبقرى كان له ربيع استمر من عام  
 ١٨٣٥ حتى عام ١٨٣٨ ؛ ولم يكن له خريف ولا شتاء !  
 أما صيفه فكان قصيراً ، أفاق خلاله ذات يوم من  
 ركوده وكتب قصيدته « ذكرى » .. و « الليالى » تقع  
 في ربيع حياته الأدبية ، أى كلام إذن عن تأثير موسيه  
 هو بالضرورة كلامٌ عن تأثير « ليليه » الخالدة :

« ألفريد دى موسيه أكبر شعراء الغناء في جميع  
 العصور » ... كان لأشعاره فعل السحر في نفوس  
 معاصريه إلى حد أن كثيرين من الرجال كانوا يقدمونها  
 إلى زوجاتهم كباقات من الزهور ، فان اختير اليوم  
 التالى للزواج موعداً لتقديمها فهي هدية الزفاف !

ومع ذلك فقد استل هذا الشاعر من الحياة فيما يشبه  
 الخفاء : ان الكسندر دوماس الابن Alexandre Dumas  
 (Fils) يذكر في رده على الخطاب الذى استقبله به  
 Leconte de Lisle في الأكاديمية الفرنسية أن ثلاثة  
 وثلاثين شخصاً فقط ساروا في جنازة موسيه !! ...  
 الحق ان عبقرية هذا الرجل بدت كالوميض خلال  
 عشرة أعوام تبعها الثلث الأخير من حياته الذى تميز  
 بإنتاج فاطر تنفضل عليه به قريحته بين الحين والحين ...  
 ثم ان الأجيال التي أتت في إثر المدرسة الرومانسية ،  
 وقارنت بداية المدرسة الواقعية كانت لا تشبه كثيراً ذلك  
 الجيل الذى أنتمى إليه موسيه ، والذى كان في وسعه  
 أن يؤثر فيه بتصوير مشاكله ، وأن يبكيه بالتعبير عن  
 آلامه . يضاهى إلى ذلك أنه نبذ الرومانسية في  
 الوقت الذى كانت فيه في أوجها ، الأمر الذى  
 جعل شبابه المتحمس ينفذ من حوله . وحسبنا  
 للتدليل على ذلك أن نستشهد بشيخ هرم عاصر شبابه  
 شباب موسيه ، يقول : « إن أبناءنا في حاجة إلى أن  
 نفسر لهم لماذا لا نستطيع أن نسمع بيتاً واحداً من أشعاره  
 (موسيه) — مهما كان هذا البيت تافهاً — دون أن  
 نشعر بانفعال حزين أو مرح .. ولماذا تذكرنا كل  
 سعادة نحسها وكل ألم نشعر به بصفحة من كتاباته ،  
 أو بسطر ، أو بكلمة تعزينا أو تضحك لنا . ونحن  
 حين نقول لهم هذا إنما نفشى سر أحلامنا وعواطفنا ،  
 ونعترف بأننا كم كنا عاطفين .. الأمر الذى يُظهرنا  
 بمظهر يثير سخرية أبنائنا ، هم الفقراء بالعاطفة » ...  
 كان التجاوب إذن قويا بين نفس موسيه ونفوس أبناء  
 جيله الذين ربما كان Lemerre يترجم عن حزنهم  
 العميق على وفاة الشاعر ، في تلك الكلمة التي قدم بها  
 مختارات من شعره ، يقول فيها : « نم في هدوء  
 تظلك صفصافتك الباكية — أيها الشاعر العظيم المسكين —  
 يامن توفرت فيك المقومات الفرنسية ، يامن كنت  
 تحدثنا بلغة رائعة الجمال كنا قد افتقدنا سرها . :

لغة Rabelais و Montaigne و Molière ، و La Fontaine ، وذلك المنبع الذهبي الذي عرفناه في عصر النهضة » .

والشيء الذي يثير الانتباه هو أنه لم يُنصَف إلا في أواخر القرن التاسع عشر ؛ ففي عهد الامبراطورية الثانية بدأ نجمه يصعد حتى بلغ مستوى لامرتين وفكتور هوجو ، واستمر في صعوده إلى حد أن كثيرين رأوا أنه يبرزهم في مجال الشعر الغنائي . وإذا كان البعض من أمثال بودلير Baudelaire قد شنوا على موسيه حرباً لاهوادة فيها ، فان تأثيرهم كان أضعف من أن ينال من مجد فرضه حكم التاريخ .

وتخطى هذا المجد حدود فرنسا ، فتذوق الانجليز أشعار موسيه ، وخصص النقاد لدراستها بحثاً عديدة . وهكذا نجد مثلاً أن سير فرانسيس بلجراف Sir Francis Belgrave يقارنه بشيلي Shelley و Tennyson « وربما » بشعراء عصر الزبايث ... وينبئنا بأن مواطنيه يفضلون موسيه على لامرتين وهوجو ... ويذكر في اعجاب أن لبعض قصائده « رقة خاصة يعجز المرء عن تحديدها ، وجمالاً يشبه جمال الآداب القديمة ... » ... ويقول إن موسيه أحد هؤلاء العباقرة « الذين يتألمون من أجلنا ، ويلخصون في نفوسهم أهدافنا اللاشعورية ، ويشيرون اعترافات الإنسانية » ... ثم يضيف في بحثه أنه لا يمكن للانسان — في اعتقاده — « أن يقرأ ألفريد دى موسيه دون أن يدرك أن في عبقريته شيئاً لم يجد تاريخ الشعر الفرنسي بمثله » .

ووصل مجد موسيه إلى ألمانيا كذلك ، حيث تقبله أهلها بقبول حسن . وظهرت الابحاث العديدة عنه ! نذكر منها كتاب Paul Lindau الذي يقول فيه : « لا أحد يضارعه في عمق احساسه الشعري ،

ولا أحد يبلغ ما بلغه من الاخلاص والصدق .... إنه يكره تمثيل العاطفة .... وهو يعيش في خوف مستمر من أن يضل نفسه .... هذه الأمانة المطلقة ، وهذه الصراحة هما الشيطان اللذان يأسراننا فيه ... » . ثم يذكر حكم Henri Heine : « إن موسيه هو أول شاعر غنائي في فرنسا » . حقاً لقد صدقت نبوءة سانت نيف : « إن اسمه لن يموت » ....

( ٦ )

## المختار من شعر ألفريد دى موسيه

من ليلة مايو :

الشاعر :

- \* إذا كان لا بد لك أيتها الأخت الحبيبة
- \* من قبلة صادرة من شفة صديقة
- \* ومن عبرة من عيني
- \* فأني أمنحك إياهما دون جهد
- \* لتذكرى حبنا
- \* حين تصعدين إلى السماء
- \* إنني لا أتغنى بالأمل
- \* ولا بالمجد ، ولا بالسعادة
- \* بل ولا بالألم ويا للحسرة
- \* إنني فني يلتزم الصمت
- \* لأنصت إلى حديث القلب

إلهة الشعر :

- \* أتظن إذن أنني مثل ربح الخريف
- \* التي تتغذى بالعبرات حتى فوق أحد القبور
- \* والتي لا تجد الألم إلا في قطرة ماء
- \* أيها الشاعر ! إني أنا التي أمنحك القبلة
- \* إن الحشائش التي أردت أنزعها من هذا المكان

\* لهى بطالتك ، فالملك متروك لله  
 \* ومهما كان الهم الذى يتحمله شبابك  
 \* فلتدعه يتسع ، هذا الجرح  
 \* الذى أحدثته الملائكة السوداء فى أعماق قلبك  
 \* لاشئ يسمو بنا أكثر من ألم عميق  
 \* ولكن لكى تصاب به لاتحسبن أيها الشاعر  
 \* أن على صوتك أن يلتزم الصمت  
 \* إن أكثر الأغاني يأساً لهى أجملها  
 \* وإنى لأعرف أغاني خالدة كلها نحيب فى نحيب

### من ليلة ديسمبر

الشاعر:

\* من أنت إذن يا شبح شبابى  
 \* يا أيها الزائر الذى لا يكل  
 \* انبئنى لماذا أراك دون انقطاع  
 \* جالساً فى الظل الذى أمر به  
 \* من أنت إذن أيها الزائر المنعزل  
 \* ويا ضيف آلامى المقيم ؟  
 \* ماذا فعلت إذن لتسعى ورأى فى الأرض ؟  
 \* من أنت إذن ، من أنت إذن ، أيها الأخ  
 \* الذى لا يظهر إلا فى يوم البكاء ؟

الرويا :

\* يا صديقى ، ان أبانا واحد  
 \* لست الملاك الحارس  
 \* ولا سوء طالع الناس .  
 \* ولست أعرف أين يذهب  
 \* هؤلاء الذين أحبهم  
 \* فوق هذا الوحل الضئيل الذى نعيش فيه

\* لست إلهاً ولا شيطاناً  
 \* ولقد سميتنى باسمى  
 \* حين دعوتنى أخاك  
 \* اينما ذهبت سأكون دائماً ،  
 \* إلى أن تنتهى أيامك  
 \* وحينئذ سأجلس على قبرك  
 \* لقد عهدت إلى السماء بقلبك  
 \* فعندما تشعر بالألم  
 \* أقبل إلى بلا قلق  
 \* لأصحبك على الطريق  
 \* ولكنى لأستطيع أن أمس يدك  
 \* يا صديقى ؛ اننى العزلة .

### من ليلة أغسطس

الشاعر :

\* يا الهة الشعر ! ماذا يعيننى من الموت أو الحياة ؟  
 \* انى أحب ، وأريد أن يعلنونى الشحوب ، انى  
 \* أحب ، وأريد أن أشعر بالألم ،  
 \* انى أحب ، ومن أجل قبلة أستطيع أن أضحي  
 \* بعقيرتى ،  
 \* انى أحب ، وأريد أن أحس على وجنتى الضامرة  
 \* بجريان عيني هبات أن ينضب معينها .  
 \* انى أحب ، وأريد أن أتغنى بالفرح والكسل ،  
 \* وبتجربتي الطائشة ، وبهموم يومى ،  
 \* وأريد أن أروى وأن أكرر دون انقطاع  
 \* — بعد أن أقسمت أن أعيش بلا خلية —  
 \* اننى أقسمت أن يكون الحب سرحياتى وعلة ممانى  
 \* لتتجرد أمام الجميع من الكبرياء الذى يفترسك ،  
 \* أيها القلب الذى تملأه المرارة والذى ظن أنه مغلق

\* لتحب كى تعود إليك حيويتك، صر زهرة لتتفتح .  
 \* بعد أن تأملت ينبغى أن تتألم من جديد ،  
 \* وبعد أن أحببت يجب أن تحب دون توقف .

## من ليلة أكتوبر

الهة الشعر :

\* إذا كان عسيرا على ضعف الإنسان  
 \* أن يغتفر ما يصيبه به الآخرون من ضرر ،  
 \* فلتجنب نفسك على الأقل مافى البغضاء من عذاب .  
 \* إن عجزت عن الصمغ فعليك أن تفسح الطريق للسيان  
 \* ان الموقى يعيشون فى جوف الأرض فى سلام  
 \* ومثلهم يجب أن ترقد عواطفنا الخامدة .

\* إن الإنسان صبي ومعلمه هو الألم  
 \* ولأحد يعرف نفسه إذا لم يكن قد ذاق العذاب .  
 \* لكى ينضج الحبُّ لابد له من قطرات الندى ،  
 \* ولكى يعيش الإنسان ويحس لابد له من العبرات  
 \* ألم تكن تحسب أنك شُفيت من طيشك ؟  
 \* ألسنت شاباً ، سعيداً ، مكرماً فى كل مكان ؟  
 \* وهذه المتع الخفيفة التى تحب فى الحياة ،  
 \* أكنت تقدرها إذا لم تكن قد بكيت ؟

\* أكنت تحب الزهور والمراعى والخضرة ،  
 \* وأشعار « بترارك » وتغريد الطيور ،  
 \* وميخائيل انجلو والفنون ، وشكسبير والطبيعة ،  
 \* إذا لم تعثر فيها على زفرات سابقة ؟

\* أكنت تحب الزهور والمراعى والخضرة ،  
 \* وأشعار « بترارك » وتغريد الطيور ،  
 \* وميخائيل انجلو والفنون ، وشكسبير والطبيعة ،  
 \* إذا لم تعثر فيها على زفرات سابقة ؟

\* أكنت تفهم مافى السموات من تناسق فائق ،  
 \* وسكون الليالى ، وخرير الأمواج ،  
 \* إذا لم تكن الحمى والأرق - هناك فى مكان ما -  
 \* قد دفعاك إلى التفكير فى الراحة الأبدية ؟  
 \* إذن فهم تشكو ؟ إن الأمل الخالد  
 \* قد عاد إليك قويا بفضل المحنة ؟  
 \* لماذا تريد أن تمتق تجربة شبابك ،  
 \* وأن تبخض ألما جعلك أفضل مما كنت ؟

## من « الأمل فى الله »

\* ما يهبط الإنسان إلى أعماقه  
 \* إلا ويجدك ، أنك تعيش فيه ،  
 \* إن تعذب ، إن بكى ، إن أحب ،  
 \* فبإرادة ربه .  
 \* إن أرفع مراتب الذكاء ،  
 \* وإن أسمى درجات الطموح ،  
 \* تبرهن على وجودك ،  
 \* وتدعو إلى أن يذكرك اسمك :  
 \* كيفما كان الاسم الذى يطلق عليك ،  
 \* « براهما » ، « جوبيتير » أو المسيح ،  
 \* الحقيقة أو العدل الأبدى ، ...  
 \* فإن الأذرة جميعاً تُمَدُّ إليك :

\* الدنيا بأسرها تمجدك ،  
 \* الطائر فى عشه يتغنى بك ،  
 \* ومن أجل قطرة من المطر  
 \* قدستك ملايين المخلوقات :  
 \* لا تصنع شيئاً إلا ونُعجب به ،



\* ما من شيء منك يضيع علينا ،

\* كل شيء يسبّح ، وأنت ما تكاد ترضى ،

\* حتى نخر جميعاً ساجدين .

### من «ذكرى»

\* شاهدت صديقتى الوحيدة ، أعز صديقتى إلى الأبد ،

\* التى غدت هى نفسها قبرا باهتاً

\* قبرا حياً يشيع فيه غبار

موتنـــــــــــــــــا الحبيب ،

\* غبار حبنا المسكين ، الذى طالما هدهدناه برفق

\* على قلوبنا ، فى الليل البهيم !

\* كان أكثر من حياة ، ويا للحسرة ، كان عالماً ، ثم امتحى !

\* نعم إنها لا تزال شابة وجميلة ، بل يمكن أن يقال إنها أجمل منها فى ماضيها

\* أبصرتها ، وأبصرت عينيها اللتين كانتا تبرقان مثلما كانت فى غابرها ،

\* وبدأت شفتاها تنفرجان ، فظهرت ابتسامة ،  
وسمعت صوت .

\* ولكن لم يكن ذلك الصوت الذى عرفته ، ولا تلك اللغة العذبة ،

\* ولا تلك النظرات التى كنت أعبدُها والتى كانت تختلط بنظراتى ؛

\* إن قلبى - وهو الملىء بها - كان يهيم على وجهها ولم يعد يعثر عليها .

\* ومع ذلك فقد كان فى وسعى حينئذ أن أتجه نحوها

\* لأطوق بذراعى هذا الصدر الخاوى البارد ،

\* وكان فى مقدورى أن أصبح : « ماذا فعلت ، يا خائنة ، ماذا فعلت بالماضى ؟

\* ولكن لا : كان يلوح لى وكأن امرأة مجهولة

\* قد شاءت المصادفة أن يكون لها هذا الصوت وهاتان العينان ؛

\* وتركتُ هذا التمثال البارد يمضى ،

\* وأنا أنظر إلى السماء .

